ابن السَّري الزَّجَّاج يقول : دخلتُ على ثعلب في أيام المبرّد وقد أملى شيئاً من المُقْتَضَب فسلّمتُ عليه وعنده أبو موسى الحامض وكان يَحْسُدني كثيراً ويُجَاهرُني بالعدَاوة وكنتُ أَلينُ له وأحْتَملُه لموضع الشَّيْخُوخَة .

فقال ثعلب : قد حَمل إليَّ بعضَ ما أَمْلاَهُ هذا الخَلَديّ فرأيتُه لا يَطُوعُ لسانُه بعبارة فقلت له / إنه لا يَشُكّ في حُسْن عبارته اثنان ولكَنَّ سوءَ رأيك فيه يَعيبُه عندك فقال ما رأيته إلاّ اَلْكَن متفلّقاً فقال أبو موسى : واللّه إن صاحبَكم ألكَنُ . يعني سيبويه فأحْفَظني ذلك .

ثم قال : بلغني عن الفرَّاء أنه قال : دخلت البَصْرة فلقيتُ يونس وأصحابه يذكرونه بالحفْظ والدّراية وحُسن الفطْنة وأتيتُه فإذا هو لا يفْصح . وسمعته يقول كجارته : هاتي ذيك الماءَ من ذلك الجرَّة فخرجتُ عنه ولم أَعُد إليه . فقلت له : هذا لا يصحّ عن الفرّاء وأنتَ غيرُ مأمون في هذه الحكاية ولا يعرفُ أصحاب سيبويه من هذا شيئاً . وكيف يقول هذا مَنْ يقول في أول كتابه : هذا بابُ عَلم ما الكَلم من العربية وهذا يعجز عن إدْراك فهمه كثيْرة من الفُصَحاء فضلاً عن النّطق به .

فقال ثعلب : قد وجدتُ في كتابه نحو هذا .

قلت : ما هو قال : يقول في كتابه في غير نُسْخَة : حاشا حرفٌ يخفض ما بعدّه كما تَخْفضُ حتّى وفيها مَعْنى الاستثناء .

فقلتُ له : هذا هكذا وهو صحيح ذهب في التذكير إلى الحرْف وفي التأنيث إلى الكلمة .

قال : والأجود أن يُجْعلَ الكلام على وجْه واحد .

قلت : كلٌّ جيد .

قال اللّه تعالى : (ومن يقنت منكن ورسوله ويعمل صالحاً) وقرىء (وتعمل صالحاً) . وقال تعالى (ومنهم من يستمعون إليك) ذهب إلى المعنى ثم قال : (ومنهم من ينظر إليك) ذهب إلى اللفظ .

وليس لقائل أن يقول : لو حُمل